ابن عميرة والكتابة الإنشائية

الأستاذ/ الطاهر توات

جامعـــة الجـــزائر

ملخص البحث :

تعرضنا إلى ترجمة ابن عميرة ولا سيما إلى مكانته أو منزلته العلمية والأدبية، ثم إلى بعض آثاره النثرية الفنية، ومنها رسائله الأدبية والرسمية، المتضمنة الدفاع عن بلده وقومه في الغالب. وكذلك إلى صياغته في كل من هذه الرسائل الأدبية والرسمية، إضافة إلى توظيفه للروافد التراثية من قرآن، وحديث، وتاريخ عربي إسلامي، وشعر وغيره من الأمثال العربية...

أما خاتمة البحث فقد دعونا فيها إلى استغلال كتابة ابن عميرة العلمية الأدبية على مستوى كل الطلبة ولاسيما طلبة الآداب واللغات، والعلوم السياسية والإعلام، والحقوق، كما استغلها الناس في عصره، وفي العصور الموالية، بل حتى إلى عصورر متأخرة.

I. ترجمته: إن الكثير من القدماء ومنهم أبناء عصر ابن عميرة قد تعرّضوا إلى مسيرة حياته، كما تعرّض إليها بعض الباحثين المحدثين.

أمّا من بين القدماء فنذكر منهم وممّن اطّلعنا على مؤلفاتهم كابن سعيد، ولسان الدين ابن الخطيب، وأبي العبّاس أحمد بن أحمد الغُبْريني، وأحمد بن محمد المَقْري التلمساني، وغير هؤلاء كثير كصاحب "القدح المحُلّى"، وعبد الملك المرّاكشي في "الذيل والتكملة"، وابن رشيد السبتي في رحلته، وابن فضل الله العُمَري في "المسالك والممالك" وغيرهم.

أمّا ممّن تعرّضوا إليه من المحدثين فهم على سبيل المثال لا الحصر الزرّكْلي في "الأعلام"، وبروكلمان، و"دائرة المعارف الإسلامية"، والأستاذ محمد بن شريفة في بحثه القيّم الموسوم بـــ" أبو المطرّف أحمد ابن عميرة المخزومي حياته وآثاره"، ناهيك عن آخرين كالأستاذ عمر فرّوخ الذي استطاع الإطّلاع على بعض المصادر والمراجع وهي مهمّة في ترجمة ابن عميرة، وأخذ أمثلة جيّدة عن بعض نصوصه التي أخذها من "نفح الطيب" للمقْري بالخصوص، والمهمّ أننا استفدنا منه في بعض المصادر والمراجع التي ذكرها. فابن عميرة هو أبو المطرّف أحمد بن أحمد، ولد سنة 580 هـــ أي في الخمس الأخير من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بقليل، أما دراسته فقد تلقّاها في الأندلس المعروف بطريقته الجيّدة في التدريس، والتي من بين ترمي إليه هو تفتّق ذهنية المتعلّم حسبما ذهب إلى ذلك ابن خلدون أن أهل الأندلس كانوا يخلطون إلى أبنائهم شيئا من الأشعار وغيرها من النصوص أو الإبداعات الأخرى لحفظها ولا يكتفون بتحفيظ القرآن لأبنائهم بخلاف أهل المغرب؛ ولذا نتج عن هذه الطريقة كثرة في الأدباء، والشعراء بالأندلس[1].

هذا هو الجوّ الدراسيّ الذي تلقّى فيه ابن عميرة وغيره من أبناء وطنه وربّما آخرون من البلاد المغربية نتيجة الجوار والازدواجية، فهو جوّ يساعد على تفتّق الذهنية، ويا ليت المدرسة الجزائرية تستغل ما يناسبها من هذه الطريقة المنهجية حتى تُنشئ منظومة تربوية وعلمية قادرة على تكوين الأجيال مناسبا لميولاتهم ورغباتهم.

تنقّل ابن عميرة في الأندلس وفي البلدان المغاربية الثلاث، فدّرس العلوم النقلية كأصول الفقه في بجاية، ولكن كان ميله أشد وأقوى للآداب ومنها الكتابة الفنّية.

ويبدو أنّ ابن عميرة لم يطب له المقام في بلدته ومسقط رأسه بلنسية في أول الأمر لكنه عاد واستقرّ فيها، ووظّف في مهنة القضاء في شاطبة التي كتب منها تهنئة إلى ابن هود عن لسان أهلها في وصول كتاب الخليفة العبّاسي؛ لأن دولة ابن هود كانت تدين بالولاء للخلافة العبّاسية في بغداد التّي كان يُخطبُ في مساجد الأندلس باسمها.

وَوُظّف ابن عميرة أيضا في القضاء في جزيرة مَيُورْقة التي كان بها لما استولى النصارى عليها سنة 628 هـ؛ ولذا نجده يكتب كتابا تاريخيا سمّاه "كائنة مَيُورْقة " بنثر مرسل، ومعنى ذلك أنه ابتعد عن الفنية المتمثّلة في النثر الفنيّ لكنه فصيح وبليغ؛ وهذا لتمكّنه الممتاز من اللغة والبلاغة التي كان مال إليها ونبغ حتى أنه وُصفَ بكثير من الأوصاف ومنها أنه تاج الأدباء، كما نصّ على ذلك الغُبْريني[2]. هذا ومن جديد يعود ابن عميرة إلى بلنسية لكنّه ومن سوء حظّه، وحظّ أبناء بلنسية أنها سقطت في أيدي النصارى سنة 637 هـ.

وعلى كلّ فإن سوء الأوضاع السياسية في الأندلس، والحروب التي شنّها النصارى على مسلمي الأندلس، والتي نتج عنها ما نتج من سقوط أو استيلاء متتال من هؤلاء على جزيرة ميورقة وبلنسية وغيرها الذي كان له كبير التأثير في نفسية ابن عميرة؛ وعليه أو لأجل هذا راح يحمل هذا العبء الثقيل المادي والنفسي والناتج من هذا السقوط أو الاستيلاء المتتالي طول حياته؛ ولذا فلا يستغرب المتلقّي من هذا الانعكاس على أعماله الفنية من نثر وشعر وهو يجده يُراسل أو يردّ على تلاميذه أو أصدقائه أو غيرهم من الرسميّين كخلفاء موحدّي تونس مثلا. وعلى كلّ فإننا نعذر ابن عميرة وغيره كلّ العذر من الأندلسيين والمغاربة والمشارقة وكل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على تأثّرهم العميق من ضياع الأندلس، بل وممّا هو جدير بالذكر وحتى اليوم، وممّن ينتمي إلى هذه الأمة نجده متأثّرا بهذا الضيّاع حين استذكار حادثة سقوط غرناطة مثلا التي مرّ على سقوطها الآن أكثر من خمسة قرون.

ونظرا للأوضاع السيئة التي فقد فيها الأندلسيون البعض من أوطانهم أو مدنهم في عهد ابن عميرة الذي وجدناه بنفسه يجتاز إلى المغرب كما استوطن بجاية لمدة طويلة حسب الغبريني[3]، وكان الخليفة الموحدّي والمدعو الرشيد قد استوزره، ومن جديد أيضا تولّى مهنة القضاء في سلا ثم في مكناس، ثم في سبتة لكنه غادرها لمّا استولى عليها بنو مرّين متوجّها إلى عاصمة موحدّي تونس من بني حفص، وهنا أصبح الرجل في خدمتهم حيث وظّفه المستنصر

بالله الحفصي مستشارا له. أمّا عن وفاته فكانت في تونس عاصمة مُوحدّيها، كما أشرنا إلى ذلك سلفا سنة 658 هـــ، وإن كان اختُلف فيها كما ذكر الغبريني أن وفاته كانت سنة 656 هـــ.

وباختصار فإنه تلقّى دراسته في الأندلس، وفي بجاية من المغرب الأوسط قـــام بتدريس الفقه والأدب للطلبة والذين كانوا "يعتقدون أنّ الفقيه إنما هو أديب ليس إلا اشتهار أدبه اشتهارا غطّى على ما عداه من طلبه"[4]. كما أنّه تولّى القضاء أو وظّف فيه في كل من بعض مدن الأندلس، والمغرب الأقصى والأدنى حتى طلبه الخليفة الموحدّي أو الحفصي المستنصر بالله لوظيفة الوزارة أو الاستشارة. هذا ومن الملاحظ بمكان أن ابن عميرة كان مؤهّلا لوظيفة القضاء والكتابة تأهيلا إذ قضى جلّ حياته في الوظيفتين ولاسيما في وظيفة القضاء التي مارسها لمدة طويلة في بعض المدن الأندلسية والمغاربية.

ـــ **<u>منزلته ومكانته العلمية والأدبية</u>:** وبعد هذا فنتعرّض إلى مكانته أو منزلته الأدبية والعلمية، التي تحدّث عنها ابن سعيد ومن بين ما تحدث عنه وهو أن معاصره الذي قال عنه: "هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة، وفي فنون من العلوم"[5]. وهنا عرّف به ابن سعيد بأنه الكاتب، وفي وقتنا هو عظيم الأندلس في الكتابة، وفي غيرها من فنون أخرى من العلوم، وعلى الرغم من أن ابن سعيد قد ترجم له ترجمة مقتضبة إلاّ أنها ذات قيمة كبيرة؛ من حيث مكانة ابن عميرة في فن الكتابة الإنشائية، وفي البعض من الفنون الأخرى، ومعنى هذا أنه هو المتفوّق بل النابغة في تلك الكتابة العلمية الأدبية والمتميز عن البقية الآخرين من كتّاب عصره، لكنه لو يوضّح لنا بعض الفنون الأخرى من العلوم.

أما لسان الدين بن الخطيب فيتعرّض إلى تلك المكانة الأدبية العلمية وهو ينقل عن عبد الملك المرّاكشي في كتابه "الذيل والتكملة" بأن ابن عميرة "تفّنن في العلوم، ومال إلى الأدب، فبرع فيه براعة، عُدّ بها من كبار مُجيدي النظم"[6]، وممّا يُرجّح أن تفنّنه في العلوم يقصد به علم الحديث وأصول الفقه الذي كان يُدرّسه في بجاية التي سكن بها مدة طويلة. ومعنى ذلك أن ميل ابن عميرة أدّى به إلى التفوق حتى أنه أصبح بارعًا فيه إلى درجة النبوغ؛ وبذلك عُدَّ من الكبار المجيدين في فن الشعر، لكنه كان أكبر وأشهر كتّاب عصره، الذي قلّما يجود الزمان بمثله ولاسيما في مخاطبة الإخوان، وفي هذا أيضا يورد ابن الخطيب قول عبد الملك المراكشي عن منزلة أو مكانة ابن عميرة من " الكتابة الذي هو علمها المشهور وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور ولاسيّما في مخاطبة الإخوان ..."[7]. وممّا أضاف وعلّق على كلامه أي كلام عبد الملك أن "ذات أبي المطرّف فيما ينزع إليه ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحده، إدراكًا وتفنّنًا، بصيرًا بالعلوم محدّثًا، مكثرًا، رواية ثبتًا سجرًا (والسجر هو الملئ) في التاريخ والأخبار، كلامه كثير الحلاوة، جمّ العيون، غزير المعاني، شفّاف اللفظ، ثاني بديع الزمان في رونق الكلام، وتبرير النثر على النظم والقصور في السلطانيات"[8].

لكن ترجمة أبي العبّاس أحمد الغُبْريني وفي رأينا هي ذات أهمية ووضوح؛ حيث استند فيها إلى شيوخه الثلاث كالفقيه أبي محمد عبد الحق، والخطيب أبي عبد الله ابن صالح، والمقرئ أبي جعفر ابن محمد الصدفي، وكانت لابن عميرة مراسلة مع الأوّل "قلّ أن يوجد مثلها في الزمان"[9]. إضافة وهو المهّم أن عصر الغُبْريني كان قريبًا من عصر ابن عميرة؛ إذ إن وفاة ابن عميرة كانت سنة 704 هـ بينما ابن الخطيب كانت وفاته سنة 776 هـ والفرق بين وفاتهما 74 سنة وهي مدّة طويلة، أما الفرق بين وفاة الغُبريني وابن عميرة فهو 46 سنة، إذن فالغُبريني هو أقرب إلى عصر ابن عميرة من لسان الدين بن الخطيب؛ ولذا فإن ترجمته في نظرنا لها أهمية خاصّة ولاسيما أنه يستند إلى شيوخه المذكورين في ترجمة ابن عميرة وهم كلهم من البلاد الأندلسية إلاّ أنهم استوطنوا بجاية مثل ابن عميرة إضافة إلى اثنين منهما كان من شاطبة كأبي عبد الله محمد بن صالح المولود بشاطبة سنة 614 هـ والمتوفى بعد سنة 699 هـ، وهو متعدّد الاختصاصات والاهتمامات مثله في هذا مثل أبناء عصره فهو فقيه وخطيب[10] ... أمّا أبو جعفر ابن محمد الصدفي الشاطبي الذي توفي سنة 674 هـ فهو فقيه ومقرئ ... وكان لقي ابن الأبّار، وابن عميرة، وابن سيّد الناس، وغيرهم كثير[11]. ومعنى هذا أنهم كانوا يعرفون ابن عميرة أحسن من غيرهم؛ لأنه ابن بلدهم الأندلس، وهما من أهل شاطبة، الذي كان ابن عميرة كتب تهنئة عنهم لوصول كتاب الخليفة العبّاسي كما مرّ معنا.

إضافة إلى هذا أنهم قد عاشوا معه في بجاية ولمدة طويلة، وأنهم كلهم كانوا فقهاء كابن عميرة انفرد بالكتابة الشرعية عنه، وعن غيره، والمرجّح هو هذا ما كان قصده الغُبريني حين ذهب إلى أن كتابة" ابن عميرة كتابة علمية أدبية، وكتابة غيره مقتصرة عن نوع الأدباء، وهذا المعنى هو الذي تميّز به عمّن عداه، وسبق به مَنْ سواه"[12] ؛ وإذ هو الفقيه، وهو أعلم العلماء، وتابع الأدباء، إضافة إلى أنه قد فاق الناس بلاغة كما أربى على من قبله؛ ولذا تَهادتهُ الدول وكتب عن ولاة بلنسية، وولي القضاء في كلّ من الأندلس والمغرب وإفريقية[13]، ويضاف أيضا إلى مكانة أو منزلة ابن عميرة أنه كان انتقل إلى تونس، واتصل بالخليفة الحفصي المستنصر بالله الذي عيّنه على قضاء قابس ثم استدعاه إلى تونس، وجعله من خواصّه بمجلسه، ومن فقهاء دولته كما يخبرنا بذلك الغُبْريني[14]. أمّا المَقْري فينقل وصفًا لبَعْض المغاربة لابن عميرة بأنه قدوة للبلغاء، وعمدة للعلماء، وصدر الجلّة الفضلاء، وكان ينطق عن قريحة صحيحة، وروية بدرر العلم فصيحة ذلّلت لصعب الكلام[15]. ثم يظهر أن المقْري قد نقل عن عبد الملك المراكشي وإن كان لم يصرّح به في التعريف بابن عميرة، وكذلك عن ابن الأبّار الذي صرّح به، ويظهر من المقري وغيره أن ابن عميرة كان مارس مهنة القضاء لمدة طويلة، بل كان يُختار لها اختيارًا بالإضافة إلى هذا ممارسته لوظيفة الكتابة الرسمية؛ ونظرا لكفاءته العالية في الفقه والترسّل إلاّ أن لسان الدين ابن الخطيب يرى أن له قصورًا في السلطانيات[16] أي في الرسائل الرسمية، كما يخبرنا المقري بأنه لما نزح من الأندلس كان له شديد التطلّع إلى الإقامة في

إفريقية، ويظهر أيضا سياق الكلام أن المقري كان يقصد بذلك قسنطينية أو بجاية التي سكن بها مدة طويلة؛ لأن المدينتين كانتا تابعتين للحفصيين لكنه "لمّا قدم تونس مال إلى صحبة الصالحين والزّهاد، وأهل الخير برهة من الزمان"[17]. ثم اسْتُقْضي بالأُربُس وقابس لمدة طويلة حتى استدعاه الحفصي إلى مجلسه وقربّه منه أكثر، وذلك في أغلب أموره، ثم يخبرنا المقري بأنه لخّص في " تحفة القادم: لابن الأبّار المعاصر لابن عميرة وابن موطنه هو الآخر، الذي كان كتب إليه رسالة استدعاء ابن عميرة إلى تونس وهو ببجاية عن لسان الدين المستنصر بالله الحفصي كما مرّ معنا.

هذا وممّا جاء في هذا التلخيص أن ابن عميرة هو فائدة هذه المئة وربما يعني بهذا أنه مشهور القرن السابع الهجري أو فريد هذا القرن، وهذا بإجماع الجميع، واتّصف بالابداع فماذا يتّصف به البديع، معاذ الله أن أجامله بالتقديم في حقه، وأن شهرته سبقت، ونطقه أو حديثه جوهر وياقوت أي أنه يمتلك لغة عالية في بلاغته وفصاحته، والتي تحلّت بها كتاباته في مؤلفاته وفي رسائله حتى أن أهل المغرب والمشرق عرفوا قيمته أو مكانته العلمية والأدبية؛ ولهذا فإني أحاول جاهدًا وذاكرًا لأوصافه، ومع هذا فإني أشهد على نفسي بأني لم أعطه حقّه أو أنصفه على الرغم من تناول الخصوص والعموم لسيرته وآثاره المتنوعة من نثر وشعر، والتي هي محلّ مدح وشكر. هذا ما فهمنا من تعابير ابن الأبّار عن ابن عميرة، كما نقل المقْري بأن ابن الأبّار قد أورد جملة منها[18]. وإجمالاً فإن ابن عميرة أشاد بذكره وبآثاره كلّ من ترجم له من رجالات القرن السابع والثامن كابن سعيد، والغبريني، ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهم، بل هناك ممن قد جمع له رسائله كما يخبرنا بذلك ابن الخطيب "أن الأستاذ أبو عبد الله ابن هانئ السبتي دوّن كتابته وما يتخلّلها من الشعر في سفْرين بديعيْن أتقن ترتيبها، وسمّى ذلك "بُغية المستطرف وغُنية المتطرّف من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرّف"[19].

إضافة إلى أن هناك ثلاث مخطوطات لرسائل ابن عميرة وهو مخطوط الإسكوريال، ومخطوطا الخزانة العامة بالرباط يحملان رقم 323 ك، 233 ك.

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن رسائل ابن عميرة كانت منتشرة بين الناس استغلّوها لتعليم الناشئة أسلوب الكتابة، أو أخذ نماذج منها عند الحاجة أي هي هنا شبيهة بمقامات الهمذاني، والحريري التي كان انتشارها في الأندلس والبلدان المغاربية لنفس الغرض، وكان أصاب لسان الدين ابن الخطيب لما شبّهه بثاني بديع الزمان الهمذاني كما سبق لنا ذلك[20]. هذا هو ابن عميرة وسيرته الذاتية.

II. آثاره النثرية: وهنا ارتأينا أن نأخذ ما قاله المقري عن حال الأندلس في أيام القوة والضعف، وقوله كان تقديمًا لرسالة ابن عميرة إلى الشيخ أبي جعفر بن أميّة وهو تلميذه وصديقه، وهو أنه لما استولى النصارى على بلنسية التي هي قريبة من مسقط رأسه، ونعني بها جزيرة شُقَر، التي هي بدورها الآخر بلد الشاعر ابن خفاجة، وفي هذا التقديم نأتي بقَوْل المقْري

مُلخّصين أو متصرّفين فيه ومنه: "وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع في الخصوم شفت الصدور من أمراضها، ووفت النفوس بأغراضها، واستولت على ما كان لهؤلاء الخصوم من قوة وأبّهة، ثم وقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف فعصفت ريح الخصوم، والحروب سجال، وأعيا العلاج حكماء الرجال فصار أهل الأندلس يتذكّرون موسى بن نصير، وطارق، ومن بعدهما من ملوك الأندلس التي راعت الخصْم منهم طوارق"[21].

أ). **الرسائل الأدبية**: يورد المقْري رسالةً من رسائل ابن عميرة إلى أبي جعفر بن أمية المذكور، وهذا بإعجاب شديد؛ لأنّه رآه قد أعْربَ في كلامه عن ضعف الأندلسيين حين سقوط بلنسية في أيدي النصارى، مع الملاحظ ابن ابن عميرة بدأ رسالتهُ بالشعر ثم راح يُتبعه بنثر فنيّ على عادة الكتّاب في رسائلهم الشخصية إلى زملائهم أو أصدقائهم أو ممّن لهم علاقة به، يقول ابن عميرة في رسالته المذكورة واصفاً الأوضاع السيئة التي آلت إليها الأندلس، ومنها بلنسية مسقط رأسه:

1. ألا أيها القلب المصرّح بالوجــد — أمــالكَ من بــادى الصبابة من بُــدّ

2. وهل من سُلُــوّ يرتجــى لمــتيّم — له لوعة الصادي وروعةُ ذي الصّــدّ

3. يحنّ إلى نجد، وهيهــات حرَّمتْ — صروفُ الليــالي أن يعود إلى نَــجْد

4. أمنْ بعدرُزْء في بَلَنْسيــة ثَــوى — بأحنائنـــا كالنـــار مُضْمَــرَةَ الوَقْــد

5. يُرَجّي أُناس جُنّةً من مصائــب — تطاعــنُ فيــهم بالمُثّــقّفّــة المُلْــد

6. وهل أذنَبَ الأبناء ذَنْبَ أبيــهمُ — فصاروا إلى الإخراج من جنّة الخلد

ومن هذه الأبيات الشعرية الاستفتاحية الدالة على فقدان بلنــسية موطنه ينتقل إلى صياغة رسالته بنثر فني ممتاز ومنه : "...وأجريت خير الحادثة التي مَحَقَتْ بدر التمام، وذهبت بنضارة الأيّام، فيا من حضر يوم البطشة، وعُزّي في أنسه بعد تلك الوحشة، أحقًّا أنّه دُكّت الأرض، ونزف المعين والبرّض، وصَوَّح روض المنى، وصَرَّح الخطب وما كنى ؟ أبنْ لي كيف فقدت رَجاحة الأحلام، وعقدت مناحة الإسلام، وجاء اليوم العَسِر، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر ؟ حلم ما نرى ؟ بل ما رَأى ذا حالم، طوفان يقال عنده لا عاصم، مَن يُنصفنا من الزمان الظالم ؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم؛ بالله أيّ نحو تنحو، ومَسْطور تُثْبت وتمحو، وقد حذف الأصلي والزائد، وذهبت الصلّة والعائد، وباب التعجب طال، وحالُ البائس لا تخشى الانتقال، وذهبت علامة الرفع، وفُقدت سلامة الجمع، والمعتلّ أعدى الصحيح، والمثّلثُ أردى الفصيح، وامتنعت العجمةُ من الصرّف، وأمنت زيادتُها من الحذف، ومالت قواعدُ الملّة، وصرنا إلى جمع القلّة، وللشّرك صيال وتَخَمُّط، ولقرنه في شَرَكه تخبُّط، وقد عاد الدين إلى غرْبته[22] ، وشَرق الإسلام بكربته، كأن لم يسمع بنصر ابن نُصيرــ وطَرْق طارق بكل خير، ونَهَشات حنش[23] وكيف أعيت الرّقى، وأدالت بليل السّليم يوم الملتقى، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها، وفتى مَعافر[24] وتعفيره للأوثان وطوائفها، لله ذلك السلف، لقد طال الأسى عليهم والأسف، وبقي الحَكَم

العدل، والربّ الذي قوله الفَصْل، وبيده الفضل، ربّنا أمرتَ فعصينا، ونهيتَ فما انتهينا، وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا، أنت العليم بما أعلنّا وما أخفينا، والمحيط بما لم نأت وما أتينا، لو أننا فيك أحببنا وقلينا، ولن تُرنَا من الفُرقة ما رأينا، ولم تُسلّط عدوّك وعدوّنا علينا، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا، وأكرم من أن لا تهب حقوقك لدينا.

وأشرت أيها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ، وتنسم بما لديّ، لتبرد – كما زعمت – حرّ نفس، وتقدح زناد قبس، وهيهات صلد الزند، وذوى العرار والرند، وأقتتع الشؤبوب، وركد ما كان يظن به الهبوب، فالقلم دفين لا يحشر، وميت لا ينشر، والطبع قد نكص القهقري، وقلّ منزله أن يدعى له النقرى، فها هو لا يملك مبيتا، ولا يجد لقلمه تثبيتا، وأنت – أبقاك الله عزّ وجلّ – بمقتبل الآداب، طائر ميعة الشباب، وأين سن السمو من سن الانحطاط، ووقت الكسل من وقت النشاط، وقد راجعتك لا داخلاً في حلبتك، بل قاضياً حقَّ رغبتك، والله تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقّيا، ويجُنَةِ الطاعة متوقيا، ولهناء الأنفس مستقبلا ومتلقيا، بمنه، والسلام".

وممّا جاء في هذه الرسالة باختصار التأسف والحسرة الكبيرة التي بلغت حدّها فيما نظنّ بسقوط بلنسية حيث يحنّ إليها، ولكن استيلاء النصارى حال دون العودة إلى موطنه. وهل من بعد هذا الرزء الذي حلّ بـــبلنسية موطنه رُزْءُ؟؛ رُزْءُ أثّر في الأندلسيين أيّما تأثير وحتى كأنه نار تتّقد في أحشائهم، وهل كل ما حدث لبلنسية أن يبقى هناك أناس يترجّون وقاية وحماية وأمنًا من حرب شنّها الأعداء عليهم بقوة النار والحديد التّي لا تُبقي ولا تذر ؟ ثم يتساءل ابن عميرة عن سبب المصائب التي ألمت ببلدته، وهل أنها تعود إلى الأبناء الذين كانوا قد أذنبوا ذنب أبيهم آدم حتى أنهم أخرجوا من جنة الخلد ؟ وهو يعني بها هنا الأندلس الجميل؟.

هذا بعض ما تضمّنته الأبيات الشعرية في رسالته، التي من بين ما جاء فيها هو خبر حادثة استيلاء النصارى التي كانت أتت على الأخضر واليابس بل ذهبت بنضارة الأيّام، ثم يذكر كلّ من حضر هذا الاستيلاء، الذي كان من بين نتائجه أنّ هناك منْ عُزّيَ في أنْسه، ثم يسأل ابن عميرة الشيخ أبا جعفر ابن أميّة في رسالته هذه، وهل أنّ العمران خُرّب تخريبًا؟ أبن أوْضح لي كيف فقدت رجاحة الإسلام، وعقدت مناحة الإسلام، وجاء هذا اليوم العسر الذي أوقدت فيه نار الحزن، وهل لازال هذا الحزن ؟ وهل هو حلم نراه؟ يُقال: إنه طوفان، ولا ينجو منه عاصم. ومن الذي ينصفنا من هذا الزمان الظالم، والله يعلم بما يَلْقى الفؤاد ؟

وهنا يوظّف ابن عميرة المصطلحات العلمية المتمثّلة في قواعد اللغة العربية كحذف الأصلي والزائد، وذهاب الصلة والعائد، وباب التعجّب الذي طال، وذهاب علامة الرفع، وفقد سلامة الجمع، والمعتل أعدي الصحيح، والمثلث أردى الفصيح، ومالت قواعد الملة، وصرنا إلى جمع القلّة. وكل هذه المصطلحات النحوية والصرفية وغيرها تدلّ دلالة قاطعة على ما آل إليه حال أهل بلنسية جرّاء استيلاء النصارى عليها. هذا وما دام ابن عميرة هو من الكتّاب بصفة عامة، الذين تقتضي منهم الشروط أن يكونوا على اطلاع واسع ولاسيّما في المواد الأساسية

كاللغة، والآداب، والتاريخ، والعلوم الإسلامية فإنّنا نجده يوظّف الحديث، والتاريخ، كما وظّف من قبل علوم اللغة العربية، وفي هذا ما يقول: " وقد عاد الدين إلى غربته، وشرق الإسلام، كأن لم يسمع بنَصْر ابن نُصير، وطَرْق طارق بكل خير ونهشات حنش، وكيف أعيت الرّقى، وأدالت بليل السليم يوم الملتقى، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها، وفتى مَعافر وتعفيره للأوثان وطوائفها، لله ذلك السلف، لقد طال الأسى عليهم والأسف"[25]. ثم يلجأ ابن عميرة إلى الدعاء الذي هو سلاح المؤمن، حيث لم يبق غيره ، وهنا ينفّس ابن عميرة عن نفسه، وما ترسّب في نفس كل أندلسي عن مآسي الحرب الشنيعة وآلامها، التي شنّها عليهم النصارى وبدون هوادة، ويا لها من أهوال وأهوال يشيب منها حتى الولدان، ثم يقول ابن عميرة في دعائه الذي كان وجّه فيه اللوم إلى الأندلسيين؛ لأنهم اختلفوا وأصابهم منه ما أصابوا: "وبقي (الله) هو الحكم العدل، والرّب الذي قوله الفصل ... ربّنا أمرت فعصينا، ونهيت فمالا انتهينا ... لو أننا فيك أحببنا وقلينا، لم تُربا من الفُرقة ما رأينا، ولم تسلّط عدُوّك وعدونا عليك، لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا ..." [26]. هذا وممّا لاشك فيه أن ابن عميرة أثّر فيما قبله وبعده بهذا الوصف لأوضاع الأندلس.

ويستمرّ ابن عميرة في ردّه على إشارة الشيخ أبي جعفر بن أميّة، وهو أنه يُهدّي من روعه وجزعه من فقدان وطنه؛ وهذا بتشجيعه له، لكن ابن عميرة يردُّ على صديقه وتلميذه ردّ المنكسر المنتكس أو اليائس، ولعل هذا ما يظهر من قوله: "وأشرت أيها الأخ الكريم إلى استراحة إليّ، وتنسّم بما لديّ؛ لتُبَرّدَ كما زعمتَ حرَّ نَفَس، وتقدح زناد قبس، وهيهات صَلَدَ الزّند، وذَوَى العَرار والرّندُ، والطبع قد نكص القَهْقَرَى، وقلَّ منزله أن يُدعَى له النّقَرى فهو لا يملك مبيتًا، ولا يجد لقلمه تثبيتًا"[27].

ومن الملاحظ أن ابن عميرة كان يستقي تعابيره من الطبيعة كالماء البارد، وبعض النباتات وهو في هذا كغيره من أدباء الأندلس وشعرائها. أمّا إذا رجعنا إلى النصوص التاريخية البحتة والموثقة فنجد فيها ما نجد من قيام محاكم للتفتيش وغيرها من وسائل أخرى كالطرد القسري للسكان، ومن أعمال أخرى يشيب منها حتى الصغير، وليراجع في ذلك المصادر والمراجع الخاصة بالتاريخ الأندلسي والتي فيما نعلم أنها كثيرة؛ ولذا فإن هذه الرسالة الموجودة لدينا لهي في راينا من أحسن ما عبّر عنه ابن عميرة في المحنة الأندلسية، وللإشارة فإنها تدل على أن المقري له ذوق رفيع، واختيار المرء دليل على عقله كما يقال.

وفي الأخير يختم ابن عميرة رسالته بالدعاء إلى الشيخ أبي جعفر بن أميّة بأن يبقيه ويمتّعه بمستقبله وشبابه، وأين من سن الشباب والشيخوخة، ووقت الكسل من وقت النشاط، وكأنه يقول بأن هناك فرقًا بعيدًا، وهذا ما قصده حسب دلالة الألفاظ وسياقها. والله تعالى أن يجعله مترقّيًا بالعلم، وأن يجعلَ نفسه في المستقبل هادئة مطمئنّة؛ ليعيش رغد العيش أو ليعيش

حياة سعيدة، والدعاء لتلميذه وصديقه الذي وجّه له هذه الرسالة مخبرًا له فيها عن استيلاء النصارى على بلنسية، ثم يُنهي رسالته بلفظ السلام كما هو الحال في كل رسالة.

أما عن هيكلة الرسالة فلا داعي للحديث عنها؛ لأن هذا يطول بنا. كما يظهر من رسائل ابن عميرة وبوضوح أن محنة الأندلس كانت يومئذ هي محنة العصر، وهو أيضا في رسالة أخرى يذكر تغلّب النصارى واستيلائهم على البلاد الأندلسية. كما يضهر من سياقها أنها هي ردّ منه على رسالة استفتحها بالشعر قائلا:

ألا إن شخصينا على القطع واحد وجاحدُ هذا للضرورة جاحد

فإن لم تُصدّق ما نطقتُ بصدق فإنك لي لاح وللــودّ لاحــد

ثم يُتبع ابن عميرة رسالته هذه بنثر فني عالي كعادته ومنه: " ... ومعاذ الله، عزّ وجّل، أن تلحاني، أو تمنع ريحَ ريحاني، وكيف تصدّ عنّي بوجهك، أو تشحذ لي غرب نَجْهك (الردع والانتهار)، وأنا على غيبك أمين، ولشمالك يمين، ولكم دعوتَ بي فأجبتُ، واستغنيتَ عنّي فحجبت، وأردت الاستبداد فما استطعت، ونَعَّتَ الوداد فما أحسنت النعتَ، ولله درّ أخيك سما بنفسه عن أن يستخفّه نَسَب يرفعه، وحسب ما منّا يدفعه، وكذلك الكرام يرون عليهم حقّا، ويَتَوَقَّونَ من لم يكن من الكبر مُوَقّى، وقدَمُه إلى الحاجات تَخفُّ، يصون عرضَهُ بماله، ويُخْفي صدقة يمينه عن شماله، ويقسم جسمه في جسوم، ويقوم بالحقوق غير ملول ولا ملوم..." [28].

ويبدو أن ابن عميرة وجّه لومه أو عتابه إلى أحد أصدقائه، لأن العتاب يوجه إلى الأصدقاء، وفي مقابل ذلك فإنه لربما يصف هذا السلوك السوي لشخص آخر كان قد ترفّع عن نسبه وحسبه وهو لا يستطيع أحد منّا نُكرانَهُ ، وكذلك الناس الكرام لا يجرون كثيرا وراء الحاجات، وهذا الشخص كان صان عرضه بماله بما يعطيه أو يمنحه للغير.

وينتقل ابن عميرة من مدح السلوك الحسن أو من تعداد المناقب التي يتحلّى بها بعض الأشخاص إلى الشخص الذي كتب له ويذكر بأنه حدّثه عن الماضي، وعن العمران من قصور شامخة عالية، وظلال وارفة، والحياة مع أكرم جماعة وأحسنها، وما ذكره من ماض وتاريخ تولى على ألاّ يعود؛ إذ كلّ فارقاه على أحسن ما كان ، وودّع به الماضي الأجمل، والمكان الأطيب، اندرست الآثار، وذهبت تلك النجوم، وانتصر علينا الروم بحربهم التي قسّمتْنا بين أسير ومعاني، وأودت منّا بالكثير والقليل؛ وبذلك استشفى الكفر من الإسلام، فكم هناك من رغد العيش قد فرّطنا فيه أو أضعناه، وكم هناك من عمران وديار قد فارقناها وإلى الابد؛ حيث لا امكان ولا مكان للعودة أو الرجوع إليها، كما يذكر أن هذا الشخص قد ذكر أنه اجتاز البحر في يومين، وأنه انتقل من السفن إلى العذاب، ومن سكنه إلى سكن يشترك فيه الفلاّح والملاّح وإلى غير ذلك ممّا يصعُبُ فهم إشاراته؛ لأنها تحتاج إلى جغرافيين ومؤرخين عن الأندلس أو أننا نجدها في مصادرهم ومراجعهم.

لكن ونظرًا لحادثة الرزء أو المصيبة التي حلت بجزيرة ميورقة وبلنسية التي عاشها فإنه يلتمس من هذا الشخص المراسل له ألاّ يشرقه بحديثه هذا عن استيلاء النصارى وما نتج عنه من ويلات للأندلسيين ولاسيما حديثه عن أمّ تلك الأرض التي لها الويل ولعله يقصد به إحدى مدن الأندلس التي سقطت بعد نزوحه إلى البلاد المغربية أو هي بلنسية موطنه ومرتع صباه وشبابه وجزء من مرحلة كهولته.

وهنا نجد المقْري ينصّ على أن ابن عميرة قد واصل كلامه أو أتْبَعَهُ بأبيات شعرية، وهي قوله[29]:

زدنا عن النائين عن أوطانهم وإن اشتركنا في الصّبابة والجوى
إنا وجدناهم قد استسقوا لها من بعد أن شطّتْ بهم عن النوى
ويصدّنا عن ذلك في أوطاننا مع حبّها الشّرْكُ الذي فـــيه ثوى
حسناءُ طاعتها استقامت بعدنا لعدوّنا، أفيستقيم لها الهـــوى ؟

ومن بين ما يعلق عليه المقْري في هذه الأبيات أنه لم يُرو، ولم يُسمع بمثل هذه الأبيات لا في مضمونها ولا في صياغها الممتازة الرفيعة، وتضمينها الإشارة على استيلاء النصارى على الأندلس، ورسوخ قدمهم فيها مع دمج حبّه للأندلس الذي لا يشك فيه ولا يرتاب، بالإضافة إلى اشتمالها على المحاسن، ولكل أجل كتاب، وإذا نفذ سهم المقدور فلا لوم ولا عتاب[30] ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن ابن عميرة كتب إلى صاحبين له يبدوان أنهما نزحا من الأندلس إلى الضفة الجنوبية أي العُدوة أو المغرب الأقصى ويستفتح رسالته هنا وكعادته وعادة الكتاب أيضا في الرسائل الإخوانية (الأدبية) بأبيات شعرية يّحَيّيي بها صاحبَيْه على إرسال تحيّتها الخالصة له، ومشيرًا إلى أن رسالتيهما أذكرتهُ بعهود، كما يقر لهما بأنهما حَلاّ أو نزلا بأرض هو يحبّها ويهواها، وأن قلبه في يوم من الأيام لم يصْبُ ولم يحنّ إلى غيرها، وفي هذا يقول:

تحية منكـــما أتـــتني طابت كما طاب مُرْسلاها
ويا لها أذكرت عهودًا قـــــلبيَ والله ما ســـلاها
حلَلْتُما في البلاد أرضًا ريحُ صباها عنّي ســـلاها
لم يصبُ قلبي إلى سواها يومًا ولم يَسْلُ عن سَلاها[31]

ثم يُتبع ابن عميرة هذه الأبيات بنثر فنّي عالي الجودة كعادته، يتضمّن من بين ما يتضمنه الدعاء إلى صاحبيه بأن ينزلهما الله خير منزل، وأن يجعلهما بعيدين عن المصائب ومشاكل الحياة، كما يذكر بأنه يُراسلاهما من رباط الفتح {الرباط حاليا عاصمة المملكة المغربية الشقيقة}، وأن قلبه ملكاهُ أو استوليا عليه، كما عرف الصديقان صدقه وإخلاصه لهما هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنه يستفسرهما عن حال سفرهما والأتعاب التي تحمّلاها نتيجة هذا السفر الذي قطع فيه البحر وفي ظرف يومين، ثم يسألهما على أنهما كيف سخَتْ أو جادت

نفوسهما بأمّ الحصون أو القلاع، وذات الظلال والعيون. ولكن ماهي صاحبة الحصون ؟ وهنا يتساءل ابن عميرة هل هي تربة أو أرض الآباء ومنزلة الجُمحيّين النجباء حتى أنهما هجرا أو تركا روابيها وسهولها، وخاض فجاحها الغبر وأمواجها الخضر ؟.

وما هذه الهجرة والنزوح عن الوطن إلاّ نتيجة لتغلّب الحادث النّكر، وتألّب المعشر الغُدُر، الذي يعني بهم هؤلاء النصارى وحروبهم المتلاحقة، وهذا ما يفهم من دلالة الألفاظ وتراكيبها، فهو مثلاً يذكر تغلّب الحادثة النّكر – وتألّب المعشر الغُدُر – ومن أجل الداهية النّكاد – والحادثة الشنيعة على البلاد التي أزعجتهم كما أزعجتنا، وأخرجتهم كما أخرجتنا، واجتاح لهيبُ نارها ثمرنا وشجرنا أوْزراعتنا.

وعلى كل فلم يبق شيء لنا إلاّ الشكر لله على قضائه وقدره، والتضرّع فيما نرفعه من دعائنا. إضافة إلى هذا وفي مقابل هذه المصائب يهنئ ابن عميرة نفسه كما يهنئ هؤلاء المشرّدين المنطوين أو المنطوية نفوسهم من الشجن والحزن وهو شرّ داء على لجوئهم إلى هذا الشخص العظيم الذي آواهما، وبقيا في ظلّه وحمايته ... [32]

هذا بعض ما جاء في هذه الرسالة إلى صديقيه؛ وللتدليل على ما جاء ذلك من مضامين، وللصياغة الفائقة التي يتميز بها ابن عميرة في نثره الفني أو كتابته؛ ولغرض التعليم واستغلالها نورد نصّ هذه الرسالة، وكما أوردها لنا المقْري في نفح الطيب، وهي.

" ... تحيّة منكـــما أتَتْنـــي	**طابت كما طابَ مُرْسلاها**
ويا لها أذكَـــرَتْ عهـــودًا	**قلبـــي والله مـــا سَـــلاها**
حلَلْتما في البلاد أرْضًـــا	**ريحُ صبَاها عني ســـلاها**
لم يَصْبُ قلبي إلى سواها	**يومًا ولم يَسْلُ عن ســـلاها**

كتابي أيها الأخَوان اللذان بودهما أقول، وعن عهدهما لا أحول – أنزلكما الله تعالى خير منزل، وجعلكما من النوائب والشوائب بمعْزِل – من رباط الفتح ولُبّي قديمًا ملكتما رقّه، وقلبي تعلُّمًا وتعليمًا عرفتما صدقه، كيف حالكما من سَفَر طويتما خبره، حين تجشمتما غرَرَه ؟ وكيف سَخَتْ نفوسكما بأم الحصون، وذات الظلال والعيون؟ تربة الآباء، ومنزلة الجُمَحيّينَ النُّجباء، حتى صرمتما حبلَها، وهجرتما حَزْنَها وسَهْلَها، وخضتما غُبْرَ الفجاج، وخُضْرَ الأمواج ؟ ما ذاك إلا لتغلّب الحادث النّكر، وتألّب المعشر الغُدُر، ومن أجل الداهية النكاد[33]، والحادثة الشنيعة على البلاد، أزعجتكم حين أزعجتنا، وأخرجتكم كما أخرجتنا، وطوّحت بنا طوائحُها، واجتاحت ثمرنا وشجرنا جوائحُها، فشكرًا لله تعالى على قضائه، وتضرعًا فيما نرفعه من دعائه، وهنيئًا لنا ولكم معشر الشُّرداء، المنطوين من الشجن على شرّ داء، ذلك الطّوْد الذي إليه أوَيْتُما، وفي ظلّه ثّويتُما، وعن رأيه تَرَيان، وبسَعْيه تسعَيان، فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحًا، ولا يعدو لصبحه إذا دجا ليلُ الهمّ صبحًا" [34].

هذه أمثلة عن بعض الرسائل التي كتبها أو ردّ بها على معارفه أو أصدقائه في موضوع الحرب التي قادها وشنّها ملوك النصارى بصفة عامة على ملوك المسلمين وأمرائهم بالأندلس، والتي تركت أثرًا كبيرًا في نفسية ابن عميرة، وغيره من أبناء وطنه أو بلدته بلنسية، التي سقطت سنة 636 هـ أي بعد سقوط قرطبة وبعده بثلاث سنوات فقط، ثم جاء سقوط اشبيلية سنة 646 هـ، ومرسية سنة 666 هـ أي سقوط متتالي.

ـ **ابن عميرة وبعض انطباعاته عن رسائل أصدقائه:** والآن ننتقل إلى رسالة أخرى وخارجة عن موضوع الحرب على المسلمين في الأندلس، وهي رسالة كما يبدو من صياغتها أنها أيضًا لأحد معارفه أو أصدقائه، وكتبها له من رباط الفتح، وهي رسالة، كما تطرق في هذه الرسالة التي جاءته إلى صياغتها، وهي أن صاحبها شاعر وناثر يمتلك من القدرة الإنشائية الفائقة ما يمتلك حتى أنها إذا عُرضت أو قورنت ببلاغة البلغاء والشعراء الأقدمين فاقتهم من حيث شاعريتها؛ إذ إنها لم يرها، ولم يروها راء، ولا راو حتى أنها رمت ابن الرومي بالخمول، وحكمت على السّريّ بأنه عن سراوة الإحسان مخرج وغيره.

أمّا نثرها أو كتابتها فهي من الطراز الذي لا يحسنه البلغاء حتى أن الميكالي وميكاله مرفوض، والحريريّ وحريره في سوق الكساد معروض، وغيرهما، ثم يطرح ابن عميرة سؤالا تعجيزيا، وهو من ذاك الذي يُجاري فارس الصفّين وإمام الصّنفين ؟ فيجيب بأن هذا الشخص هو أبْلَغُ من خَطّ بقلم، وأشهر من نار على علم. وماذا يقال عن اسمه في شرق البلاد وغربها ظاهر، فالزمان يَأْثرُ ما ينْظم ... ولو أن الأزمنة قبله جاءت بالكتّاب من كل جيل، والشعراء رعيلاً بعد رعيل لطال هذا العصر بواحده آلافها، وأنسى بخَلَفه أسلافَها.

هذا بعض ما جاء في هذه الرسالة البليغة، والبليغة جدًّا كمعظم رسائله أو كتاباته أو شعره، وبالفعل توضح وتبيّن هذه الرسالة على الأقل بأنها قمّة البلاغة والفصاحة كما يقال. وهنا يشترط في المتلقّي بصفة عامّة أن يكون له بعض الإلمام بالشروط العامة التي ذكرها النقّاد المغاربة والمشارقة ولاسيّما منها الأساسية وغيرها والتي ذكرها القلقشندي في موسوعته صبح الأعشى، وكذلك الاطّلاع على الكتابات النقدية الحديثة كشوقي ضيف في كتابه: الفن ومذاهبه في النقد العربي وغيره.

ومن الملاحظ هنا وبكل اختصار نشير إلى هذا الإكثار من السجع القصير، الذي كما يُقال عنه بأنه أحسن من المتوسط والطويل، والإتيان بالأمثال العربية القديمة وبأسماء الأعلام من الشعراء والكتّاب الذين برزوا في العصر العبّاسي، والإتيان أيضًا بهؤلاء الذين قارنهم ابن عميرة بصديقه، الذي كان فاقهم قوة وملكة في الشعر وفي الكتابة؛ وهذا ممّا يدلّ على ثقافة الكاتب ابن عميرة اللغوية، والأدبية والتاريخية، وهي من الشروط الأساسية التي يجب توفّرها لدى كلّ من يريد أن يصبح في يوم ما كاتبًا في دواوين الرسائل أو الإنشاء.

هذا وممّا هزّ المقْري واستفزّه على حدّ تعبيره حين أورد هذه الرسالة وبعبارة أخرى كان قد أعجب بها إعجابًا شديدًا في فصاحتها وبلاغتها، وحقيقة أننا اطلعنا على هذه الرسالة وغيرها من رسائل ابن عميرة في الديوانين المخطُوطَيْن لرسائله في الثمانينات، والتي كانت شدّت انتباهنا وإعجابنا، ومنها قوله:

"كتبتُه إلى سيّدي وهو السيّد حقيقة، وأخي وقد كتب الدهر بذلك وثيقة، أبقى الله تعالى جلاله محروسًا، ورَبْع وفائه لا يخشى دُروسًا، من رباط الفتح وأنا بحقّه عليم، وعلى عهده مُقيم، وشأني توقير له وتعظيم، وحب فيه خالص كريم، ووَصَلَني خطابه الخطير المبرور، فكنت به الصّائم رأى الهلال، والهائم عاينَ الماءَ الزُّلاَل، عِلْق ليس يوازيه علق، وسحر لكنّه حَلال طِلْق، ونظم لذكر الطائي طاوٍ، وصنعة لم يرها ولم يروها راءٍ ولا راوٍ، رَمَت ابن الروميّ بالخمول، وبَشَرت اسم بَشار من الفحول، وحكمت بأن النمريّ في نَمِرَة الهَوَان مُدْرَج، والسريّ عن سَرَاوة الإحسان مُخْرَج، فأمّا النثر فصهيل لا يجاوبه الرُّغاء، وطراز لا يحسنه البُلغاء، ونَقْد تَزيف معه النقود، ومَدًى تنقطع دونه الضُّمَّر القُود، غادر الصابيَّ وصبَاه غير ذات هبوب، والصاحبَ وهو من العجز مع شرّ مصحوب، والميكاليَّ وميكالُه مرفوض، والحريريَّ وحريره في سوق الكساد معروض، فأمّا بحر رئيس أرّجان، فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان، وأبقاه في ضَحْضاح، بل تركه يمشي بأدرج ضاح، فمن ذا يُجاري فارس الصفَّين وإمام الصنفَين؟ أبلغ من خط بقلم، وأشهر من نار على علَم، وماذا يقال في أنامل تطرز بها الصحف، وخَمائل تفخر بها الروضة الأُنُف، واسم في شرق البلاد وغربها ظاهر، ووَسْم بالكتابة والنجابة لم يكن لبني وَهْب وآل طاهر، فالزمان يأثر، ما ينثر، ويعظّم، ما ينظم، ولو أن الأزمنة قبله عمرت المحاضر بكل ناجم، ونشرت المقابرَ عن الصَّـــنوبري وكُشاجم ، وجاءت بالكتاب من كلّ جيل، والشعراء رَعيلاً بعد رَعيل، لطال هذا العصر بواحده آلافها، وأنسى بخَلَفه أسلافَها"[35].

أمّا تأثيرات مهنة القضاء والكتابة، والعلوم الأخرى فحدّث عنها ولا حرج، بحيث أنها تظهر في كتابته بكل يسر وسهولة؛ لأن الرجل كان قد مارس مهنة القضاء لمدة طويلة كما مرّ معنا في ترجمته، وهذا ما يدل مثلا عليه لفظ كَتَبَ، ووثيقة ...

ب). <u>الرسائل الرسمية</u>: هذا عن رسائل ابن عميرة الأدبية أو الاجتماعية أو الخاصة، لكن هل نجد هذه الصياغة أو الأساليب الشعرية في رسائله التي كتبها عن الرسميين أو إليهم كرسالته عن أهل شاطبة مُهنّئين فيها ابن هود بوصول الكتاب العبّاسي إليه من بغداد بولاية الأندلس؛ حيث كان هذا الأخير يدعو إلى الخليفة العباسي حين ثار على الموحّدين؟ وكرسالته إلى سلطان إفريقية أو تونس أو الوارث لملك بني عبد المؤمن أو موحدّي تونس أو الحفصيين أو غيرهم؟

وهنا نرجئ الإجابة عن هذه الأسئلة بعد الحديث عن مضمون الرسالتين ، والذي ممّا جاء في الأولى منه : أن أهل شاطبة أو جمهورها كانوا راضين كلّ الرضا عن ولاء ابن هود

للخليفة العبّاسي؛ وبهذا فإنهم يباركون الأمر المجاهدي المتوكّلي، والعهد الواثقي المعتصمي، الذي ينسكب كأنه المطر، وبالتالي فإن فائدته عائدة على البشر بكل خير، والقاضي بعودة النصر والظفر.

ثم والحمد لله على أن أهل شاطبة قد عقدوا العزم على الالتزام بأداء الواجب، والقيام بحقوق النعم، وهذا ما تطلعوا إليه بل أصبح راسخًا في أذهانهم، واشترك معهم في كل هذا أهل الأرياف والحواضر؛ وعليه فإن آمالهم كبيرة، بل هناك ما يدلّ في كلام أهل شاطبة وغيرهم على أن التزامهم صحيح؛ وهذا بالإذعان إلى الأوامر؛ لأنهم يرون في كتاب الخليفة العباسي رجاءهم، وهم صادقون في طاعتهم ومعتزّون بها.

ثم يتطرق ابن عميرة في الرسالة بالدعاء إلى الله على أن ينهض أهل شاطبة بالوظائف التي يكلّفون بها، كما أنهم يُحملون على اتّباع المناهج السوية، كما يتحدّث ابن عميرة عن اليوم الذي وصل فيه كتاب الخليفة العباسي إلى ابن هود، وهو يوم يعجز فيه حتّى البليغ عن وصفه؛ لما لهذا المشهد العجيب، أو لما لهذا المنظر، الذي خاف وفزع (وَجل) منه النصارى، وفي المقابل لذلك راق الأندلسيين وأعجمهم حتى أن هذا اليوم له شبه باليوم الذي خرجت فيه الريات السود من خراسان، وكفى بهذا فخرًا وافتخارًا به أو بهذا التاريخ، الذي هو علوّ في الإسناد، ولا شبيه له في الدنيا.

ولعل هذا هو إشارة إلى تاريخ بداية التأسيس للدولة العبّاسية؛ وما أكثر الإشارات التاريخية التي كان يأتي بها ابن عميرة في كتاباته التي قد لاحظها ممّن تأثر به من القدماء كلسان الدين ابن الخطيب وغيره[36]. كما يشير ابن عميرة إلى بعض مضامين الكتاب أو الرسالة الواردة من الخليفة العبّاسي، ومنها نص العلامة الذي يتضمّن صفة لله "عزّ وجــلّ" وهي من صفات الكمال هذا من جهة.

ومن جهة أخرى وما دامت هناك حروب مستمرّة وإبادة للمسلمين في الأندلس من طرف النصارى الإسبان وغيرهم فإن ابن عميرة يشير إلى أن كتاب الخليفة العبّاسي دلّ على النسخة المشتقة من الجهاد، والسمة من سيف أمير المؤمنين.

هذا وكلّ ما احتوى عليه كتاب الخليفة أشعرنا نحن الجمهور بالعناية السابقة بالمقام المجاهدي حين تولّى خلافة أمير المؤمنين، ولعل ابن عميرة هنا يقصد ابن هود، الذي كان يدعو للخليفة العبّاسي، لأن الدولة العباسية كان قد خُطب لها ببلاد الأندلس، كما أخبرنا بذلك المقْري[37] ويحمد خطاب التهنئة لأهل شاطبة على مَنْحه هذه النعم الجزيلة، وشرح صدور أولي المؤمنين باليقين، وشرّف هذه الأمّة بتولّي الخليفة العباسي سليل الأئمة الخلفاء، وابن عمّ الرسول (ص)، والجمهور يهنّئ بهذه النعم التي لا ينقطع عن وصفها علم إلاّ وظهر علم آخر، كما أنّه يتشوق إلى مشاهدة هذه المعالم السنّية وغيرها ممّا وصفه خطاب أهل شاطبة عن لسان ابن عميرة.

وباختصار فإن خطاب التهنئة لأهل شاطبة إلى ابن هود على وصول كتاب الخليفة العبّاسي يتطرق فيه ابن عميرة بصفة عامّة إلى بيعة أهل شاطبة للخليفة المذكور، والتي لا يشوبها أي غموض، بل هي نابعة من إرادتهم، كما يشير الخطاب إلى تأسيس الدولة العباسية وتاريخها الطويل الحافل بالأمجاد العظيمة، وافتخار أهل شاطبة بها.

وممّا هو جدير بالذكر أن ابن هود كان قد أدخل الأندلس تحت طاعة الإمبراطورية العبّاسية ونفوذها حينما ثار على الموحدين، ومن المعلوم أنه كان من ملوك الطوائف الأندلسية، الذين كانوا قد استقلوا بسرقسطة، ومن أشهرهم المقتدر بالله، وابن يوسف المؤتمن، كما كان ابن هود منافسًا لابن الأحمر، لكن ما لاحظناه هنا على بني هود وبصفة عامة أنهم كانوا متشبّثين ومعجبين بالألقاب الدينية السياسية لخلفاء بني العبّاس، وعليه فإننا وجدناهم يطلقون على ملوكهم ألقابًا كالمقتدر بالله، والمؤتمن، والمستعين، والمتوكّل والواثق الذي كان آخرهم؛ حيث استولى النصارى على ملكه وملكوا منه مُرسية سنة 668 هـ، وبهذا الاستيلاء انقرضت دولة ابن هود.

وفي الأخير وعلى كلّ فإن الرسائل الرسمية تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية إلاّ أنها سُجلت بتلك الأساليب الشعرية على حدّ قول ابن خلدون في تعريفه[38]. ويعني بذلك التشابيه والمحسّنات اللفظية ومنها على الخصوص الأسجاع، ومع كل هذه المعوّقات فإنها لا تحول بين ابن عميرة وبين بلوغ تحقيق هدف في إرسال الخطاب إلى الجهة الموجّه إليها، وحسب إطلاعنا فإنه يركّز على الموضوع تركيزًا، وبالتالي فإن صياغة خطابه الرسمي أو كتابته الرسمية يسهل فهمها، وهذا على الرغم من توظيفه الأسجاع وغيرها من الأشعار، ودليلنا على ذلك من الرسالة التي بعثها إلى مؤسس دولة بني حفص أو الوارث لسلطة الموحدين بتونس وغيرها من البلدان الأخرى كقسنطينة وبجاية، التي تتضمّن المطالبة بأخذ ثأر الأندلسيين من عدوّهم، ولَمّ شتاتهم؛ لأن لهم أملاً في هذا الخليفة الموحدي الحفصي.

فهذه الرسالة الشعرية النثرية يبدأها ابن عميرة بالنسيب، ثم ينتقل إلى مدح الخليفة الموحدي بتونس؛ وذلك بذكر بعض خصاله، وخصال آبائه وأجداده في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، كما يشير إلى نسبهم، ثم يعود مركّزًا خطابه على مدح الخليفة ومنه أنه ورث ما أحرزه الموحدون من قبل من مآثر وهو أنه أفاد هذه الأمة الإسلامية خيرًا في حاضرها ومستقبلها؛ وهذا برأيه البصير الناقد؛ وذلك بفضل الخالق الذي أرشده إلى الرأي الصائب، كما تولّى الخالق توفيق آبائه وأجداده الذين سعدوا من قبل. وفي الأخير يدعو الله بأن يكفل هذا الخليفة؛ لأنه أوفى كافل، وأكفى عاضد. هذا ما جاء في الجزء الشعري من هذه الرسالة، ثم ينتقل في القسم النثري منها إلى الدعاء إلى الخليفة الموحدّي الحفصي بأن ينصره الله ويؤيده، ويحمي ملكه ويشيده وإلى غير ذلك ممّا تتضمنّه الجمل الدعائية، كما لم ينْسَ الحَمْدَ لَه أيضًا، وهو أن جعل الله هذا الخليفة حرمًا آمنًا للأمة بحيث أطفى وهج نار الفتنة فجعلها ساكنة، وأن المعروف والصلة بهذا الخليفة لا تعرف إلاّ تواصلاً، وآذانا صاغية، كما تجنّب فلّ الإسلام

بمنحه وعطائه، التي ينتظر منها الأندلسيون الكرّ على عدوّهم؛ وهذا الفيء أو العطاء سيوعدون بالفتح الأعزّ، والنصر الأغرّ، بل هم يرتقبون الفتح؛ لأنه هو أكبر هممهم وهدفهم؛ وذلك لأخذ ثأرهم من عدوّهم بل هو انتصاف للأندلسيين والمسلمين من النصارى الإسبان وغيرهم ممّن يُساعدونهم.

وكذلك يفهم من صياغة ابن عميرة أن هناك جهة قد حاولت أن تسلي وتُلهي هؤلاء الأندلسيين عن أوطانهم، وهذا بما تعينهم وتساعدهم بل تحارب معهم عدوّهم؛ وبذلك يزول عنهم أثر الظلم والضيم، بينما هناك جهة أخرى هي على العكس من ذلك؛ إذ إنها تُبقي على هذا الظلم والضيم الذي أصابهم؛ حيث أنها لم تفكّر في المنازل والديار التي أصبحت أطلالاً، وغيرها كذلك من المعالم الأخرى المصابة بالخراب والدمار نتيجة الحرب المستمرة ضدّ المسلمين في الأندلس.

وأخيرا يلفت ابن عميرة نظر الخليفة إلى هذه الحال، وأن يديمه الله تعالى ويُبقيه، وأن الآمال ليست لديه صور متخيّلة، وإنما هي حقيقة؛ بل إن رجاء الجميع مقصور عليه دون سواه.

III. <u>صياغتُهُ في الرسائل الأدبية والرسمية</u>:

ـ **<u>توظيفه للسجع القصير</u>:** هذا وإذا نظرنا إلى الجزء النثري من هذه الرسالة وكعادة ابن عميرة سواء في الرسمية منها أو الأدبية فإننا في الغالب نجده يوظّف السجع القصير كما أشرنا إلى ذلك من قبل حتى أننا نرجّح بأنه كان مولعًا بهذا النوع حيث إنه أصبح وكأنه من الملكات التي تحكّم فيها؛ إذ إننا ونحن نشعر معًا بأنه كان يأتي به طبعًا لا تطبّعًا؛ لأن الرجل كان يتميّز بميل قويّ إلى الآداب ومنها هذه الصياغة المتينة القوية.

وبهذا الإبداع وصف بتاج الأدباء[39]: ولعل ابن عميرة وجد ضالّته في هذه الطريقة أي الإتيان بتلك الصياغة المذكورة، ونعني بها من بين ما نعني تلك الأسجاع القصيرة؛ وذلك على الأقل وفيما يبدو لنا أنه كان يهدف به أيضا إلى التركيز على موضوع ما لإيصال رسالته وبأقل مساحة من القول أو أقلّ الكلمات. والمتتبّع لرسائله سواء منها الرسمية كالتي مرّت معنا، وكذلك رسالته عن المستنصر الحفصي في استدعاء ابن الأبّار من بجاية[40] ، أو الأدبية كالتي مرّت أيضًا، بالإضافة إلى رسالته إلى أبي بكر ابن الخطّاب كاتب الأمير يَغْمُراسَنْ مؤسس دولة بني عبد الواد بتلمسان[41] يدرك ولأوّل وهلة تركيزه المتمثّل في السجع القصير؛ وبهذا وغيره وصفه البعض بأنه كان لا يجارى في الكتابة ولاسيما منها العلمية الأدبية. وعلى كلّ فإنّنا لا نستطيع حتى أخذ أمثلة ولو قصيرة عن رسائله؛ لأنها كثيرة ومتنّوعة[42].

هذا عن توظيف ابن عميرة للسجع بصفة عامة، ولسجعاته القصيرة بصفة خاصّة. وهل هناك وسائل أخرى كان قد وظّفها الأديب الشاعر الكاتب في كتابته ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نرجع إلى نفس هذه الرسائل لاستخراج منها بعض الوسائل التي وظّفها هذا الكاتب الكبير بل الأكبر. إننا إذا وضعنا رسائل ابن عميرة في إطار الشروط أو

المعايير المطلوبُ توفّرها في الكُتّاب يومئذ نجدها لا تخرج عنها، كما أن هذه المعايير تنقسم قسمان أساسية وغير أساسية. فالأساسية منها أن يكون الكاتب على علم باللغة وآدابها من نحو وصرف وأمثال، وخطب، وتاريخ عام، وخاص وهو أن يكون على علم بالتاريخ العربي والإسلامي، إضافة إلى علمه بالعلوم النقلية كحفظه أو استظهاره للقرآن الكريم، والحديث الشريف وغيرها من العلوم المتفرّعة عنهما، كما يكون مطلعًا على التاريخ الأجنبي أو بعض الفرق الدينية. والمذاهب وكل هذا وغيره يحتاجه الكاتب في آداء مهامه لتحرير الرسائل والردّ عليها.

إضافة إلى فطانة الكاتب أو ذكائه، وهيبته ووقاره وهيئته أي أن تكون له منزلة مَرْمُوقة في المجتمع، وعلية القوم؛ ولأن هذا الكاتب قد يصبح وزيرًا أو رئيس الوزراء في يوم ما مثلما كانت وظيفة ابن خلدون في بجاية. هذا ومن أراد معرفة ذلك من شروط أساسية وغيرها فليرجع إلى المصادر والمراجع التي نظّرت للكتابة الإنشائية (الرسمية والأدبية) وللكتّاب كصبح الأعشى للقلقشندي وغيره من النقاد أو المنظّرين في المغرب والمشرق.

ـ <u>توظيفه للروافد التراثية</u>:

<u>المصطلحات النحوية والصرفية</u>: وهنا ومن بين ما وظّفه ابن عميرة الاصطلاحات العلمية الخاصة بعلم النحو والصرف بكلّ مهارة؛ وهذا في توريته عن الوضع السيّئ الذي آلت إليه الأندلس جرّاء استيلاء النصارى عليها، وهذا كان في رسالة قد بعثها إلى تلميذه وصديقه الشيخ أبي جعفر ابن أميّة، ومنها قوله: "مَن يُنصفنا من هذا الزمان الظالم؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم، بالله أيّ نحو تنحو، ومسطور تُثبت وتمحو، وقد حُذف الأصلي والزائد، وباب التعجّب طال، وذهبت علامة الرفع، وفقدت سلامة الجمع، والمعتل أعدى الصحيح، وامتنعت العجمة من الصرف، وأمنت زيادتها من الحذف، ومالت قواعد المكّة، وصرنا إلى جمع القلّة[43]...".

وهنا وكلّ من له اطلاع على بعض المبادئ في علم النحو والصرف وكذلك التاريخ الأندلسي يدرك وبكل سهولة ويسر ما كان يقصده ابن عميرة من إتيانه بتلك المصطلحات العلمية؛ حيث إنه قصد بحذف الأصلي والزائد أي أن الحرب أتت على الأخضر واليابس أو أصابت الجميع، كما قصد بباب التعجب طال أن الوضع السيّئ الذي عليه الأندلسيون قد طال عليهم ولم يتغيّر، ويقصد كذلك بذهاب علامة الرفع أي أن عزّتهم ومكانتهم زالت بزوال ممالكهم ودولهم ومدنهم تلو الأخرى، أمّا المعتلّ أعدى الصحيح فيقصد بها تساوى ضعف الأندلسيين ولم تبق لهم قوة تذكر نتيجة الحرب المستمّرة ضدّهم واختلافاتهم؛ إذ إن الجهات التي كانت حائلة دون وصول لظى الحرب إليها أصبحت هي الأخرى في أتون الحرب، ونتج عنها فقدان كل شيء، لكن في مقابل ذلك امتنعت العجمة من الصرف، وأمنت زيادتها يقصد بأن هؤلاء النصارى بقوا على حالهم ودون تغيير في أوضاعهم بل أمنوا من ملاحقة المسلمين لهم على أن

يلحقوا بهم أذًى كما كان في الماضي؛ وبهذا مالت الكفة لصالح النصارى وعليه صرنا قليلي العدد والعدّة أمامهم، وهذا ما يقصد به "وصرنا إلى جمع القلّة".

وممّا لاشك فيه أن المؤرخ المختصّ في الأندلس ولاسيّما في احتضارها واحتضار مدنها وسقوطها يأتي بالكثير أو يدرك دلالة تلك المصطلحات أكثر وأكثر ممّا أشرنا إليه.

ويرى لسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة بأن هذه التورية هي من بديع ما صدر عن ابن عميرة، وفي هذا يقول: " إنه ومن بديع ما صدر عن ابن عميرة هو ما كتب في غرض التورية قطعة من رسالة كان أجاب بها العبّاس بن أميّة، الذي كان أعلمه باستيلاء النصارى على بلنسية"[44].

توظيفه للأمثال: ومن اصطلاحات النحو والصرف ننتقل إلى الأمثال، وكيف وظّفها الكاتب في هذه الرسائل المطّلع عليها فهو وظّف مثلاً عربيًا شائعًا وهو " أشهر من نار على علم"، وهذا في وصف رسالة لأحد أصدقائه من حيث صياغتها التي راقت وأعجبت ابن عميرة؛ حيث إنها فاقت حتى شعر الشعراء، ونثر الكتّاب العبّاسيين البارزين كابن الروميّ، والسّريّ الرفّاء، والصابي، والصاحب، والميكاليّ، والحريري، ثم يورد تساؤلا وغرضه منه التعجيز أي أن هؤلاء لا يتبوّأون منزلة ومكانة صديقه هذا في فن الشعر والنثر بل هو "أبلغ مَنْ خَطّ بقلم، وأشهر من نار على علم"، ويبدو أن صديقه هذا كان مشهورًا؛ ولذلك فهو يأتي بهذا المثل، ثم إنه مناسب من جهة أخرى لإتمام السّجعة القصيرة التي كان يريدها وهو " أشهر من نار على علم".

هذا مثل عن توظيف ابن عميرة للأمثال العربية وإن كانت غير كافية؛ لأننا نحتاج في هذا الإطّلاع على جملة كثيرة من إبداعات ابن عميرة في كل من النثر والشعر.

توظيفه للتاريخ العربي الإسلامي: ومن توظيفه للمصطلحات النحوية، والصرفية، والأمثال العربية، ننتقل إلى توظيفه للتاريخ العربي الإسلامي، الذي استطاع أن يوظّفه بكل قدرة وكفاءة عالية؛ لأن ابن عميرة كان مؤرخًا أيضًا؛ حيث كتب كتابًا في "كائنة ميورقة"، وفي هذا أي في توظيفه للتاريخ أشار لسان الدين بن الخطيب وهو ينقل عن عبد الملك المرّاكشي في كتابه " الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" وهو أنه "كان يُلمح كلامه نظمًا ونثرًا بالإشارة إلى التاريخ"[45]، وهذا ما نجده في رسالة ردّه على تلميذه وصديقه الشيخ أبي جعفر بن أمية حين استيلاء النصارى على بَلَنْسية، وفي هذا يقول: "وقد عاد الدين إلى غربته، وشرق الإسلام بكربته، كأن لم يسمع بنصر ابن نصير، وطَرْق طارق بكل خير، ونهشات حنش وكيف أعيت الرّقى، وأدالت بليل السليم يوم الملتقى، ولم تخبر عن المروانية وصوائفها، وفتى مَعافر وتعفيره للأوثان وطوائفها، للّه ذلك السلف، لقد طال الأسى عليهم والأسف"[46].

والإشارات التاريخية هنا واضحة كل الوضوح؛ حيث يشير ابن عميرة إلى فتح طارق ابن زياد للأندلس وانتصاراته مع موسى بن نصير داخل جزيرة ايبيريا، والغزوات التي كان يقوم بها الخلفاء الأمويّون في شمال اسبانيا وغيرها، وكذلك الانتصارات الكثيرة للمنصور بن

أبي عامر العظيمة على النصارى، ولم يعرف أنه انهزم في واحدة منها، وفي هذا يقول المقري: " وكان له في غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخرة من المفاخر الإسلامية ... وعلم كل من ملوكهم (النصارى) أنه لا طاقة له لجأ إلى الفرار والتحصّن بالمعاقل والقلاع ... وأنه ما عاد قطّ من غزوة إلا استعدّ لأخرى، ولم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة وكفاه ذلك فخرًا " [47]. إضافة إلى الانتصارات التي حققها ذلك السلف الصالح. هذا ما يشير إليه ابن عميرة. وفي رسالة أخرى منه إلى مؤسس دولة بني حفص بتونس يشير إلى الموحدين، وإلى مآثرهم في الدفاع عن المسلمين والإسلام في إسبانيا بالأندلس لمّا ضعفوا أو استكانوا، ويا له من فخر ورثه ماجد عن ماجد. وأمّا الفتوحات والحروب الكثيرة والكبيرة التي قاموا بها ضدّ النصارى لم تكن لغيرهم أو لسواهم ويقصد بذلك الحروب التي انتصر فيها الموحدون بالأندلس وغيرها، وفي هذا وغيره، يقول ابن عميرة في الجزء الشعري من رسالته:

إنـــما آل أبي حَفْـــصٍ هـــدًى للورى من غائب أو شاهـــد
قعدوا فوق النجوم الزهْر عن همَمٍ نَبَّهْـــنَ عَـــزْمَ القاعـــد
وعن الإســـلام ذادوا عنـــدما فلّ طول العهد غَرْبَ الذائـــد
أيُّ فخـــر عُمَريّ المنـــتـــمي ورثوره ماجداً عـــن ماجـــد
ما الفتوح الغُـــرُّ إلاّ لَـــهُـــمُ بين ماضٍ بادئ أو عـــائـــد
.....إلخ[48].

وابن عميرة يكثر هنا من الإشارات التاريخية وكأننا به مغرم بالسير الذاتية لرجالات الفكر والفن والسياسة؛ ولذا نجده وهو يصف رسالة – كان بعثها له أحد أصدقائه – يذكر الشعراء والكتّاب الكبار كبشار بن برد، وابن الرومي، والسريّ الرفّاء، والصابي، والصاحب بن عبّاد، والميكاليّ، والحريريّ، وبني وَهْب، وآل طاهر وغيرهم من الأعلام والبيوتات التي اشتهرت بالفن الأدبي من نثر وشعر.

<u>توظيفه للنصوص المقدسة (قرآن وحديث)</u>: فابن عميرة مثله مثل الكتّاب الكبار كابن الأبّار في القرن السابع، ولسان الدين ابن الخطيب، وابن خلدون في القرن الثامن وغيرهم كثير وكثير متأثّر إلى أبعد حدّ بالنصوص المقدسة من قرآن، وحديث حتى أن صياغته امتزجت بتلك النصوص بل دخلت أو تداخلت في صياغته أو تراكيبه، وهذا حين الاقتباس أو التناص بغية أو لهدف الاستشهاد أو غير ذلك ما دامت النصوص المذكورة امتزجت مع نسيج صياغته ومعنى هذا أن تناصّه هو تناص داخلي.

ولم يتوقف ابن عميرة عند هذا الحدّ بل راح إلى النص الشعري القديم يأخذ منه أخذًا للاستشهاد وللتأكيد على ما يذهب إليه. وللتدليل على ما ذهبنا إليه عن تأثير ابن عميرة بالقرآن، والحديث نورد أمثلة من ذلك ومن الرسالة التي بعثها إلى الشيخ أبي جعفر بن أميّة الذي ذكرناه مرارًا وتكرارًا في هذا البحث، وهو قوله: " والربّ الذي قوله الفصل "، و" ما كان ذلك جزاء

إحسانك "، " لكن أنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا"[49]. وهذا اقتباس من القرآن أو تداخل أو تقاطع أو تناص داخلي كما أسلفنا؛ إذ إن الصياغة القرآنية تداخلت في نسخ صياغته فمثلاً تركيبه الأوّل مأخوذ من الآية ﴿**إنه لقول فصل وما هو بالهزل**﴾ (الطارق، الآية 13، 14)، والثاني أخذه من الآية ﴿**وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان**﴾ (الرحمان، الآية 60)، والتركيب الأخير أخذه من الآية ﴿**ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾ (البقرة، الآية 286).

وكذلك في الرسالة التي بعثها إلى الخليفة نجد تراكيبه متقاطعة أو متداخلة أو يتناصّ فيها مع القرآن، وهذا في قوله: "والحمد لله ثم الحمد لله على أن جعل به (الخليفة) حرم الأمّة آمنا"، "وتلافى فلّ الإسلام منه بفيئاته التي منها ينتظرون الكر، وبها يوعدون الفتح الأعزّ، والنصر الأغرّ"[50]. فالتركيب الأول كان متأثرًا فيه الآية ﴿**ربّ اجعل هذا البلد آمنًا**﴾ (البقرة، الآية 126)، والثاني من الآية (المرسلات، الآية 07).

ولعله من الطبيعي أن ينتقل هذا التأثير القرآني الجليّ والواضح إلى شعره، ولاسيما أن العصر هو عصر التديّن؛ وهذا في قوله مخاطبًا به أبا الحسن الرُّعَيْني (ابن الفخّار) سنة 634 هـــ:

أمنازعي أنت الحــديث ؟ فإنه ما فــيه لا لغــوٌ ولا تــأثيم

لا يأس من روح الإله وإن قست يومًا قلوب الخلق فهو رحيم [51]

فتركيبه الأول أخذه من (الآية 25 من سورة الواقعة)، أمّا الثاني فأخذه من (الآية 87 من سورة يوسف).

هذه أمثلة من التأثير القرآني، ونأخذ أمثلة أخرى عن **تأثيره بالحديث**، الذي " كان في أول طلبه العلم (ابن عمرة) شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث، وأخذه عن مشايخ أهله "[52] ، وكذلك " له حديث حسن في معقوله ومنقوله "[53]وعليه فلا يعقل ألاّ يتأثّر بالحديث، وهو الذي أكثر من سماعه، وأخذه عن مشايخ كانوا مختصين فيه. ومن هذا نأخذ مثلين او ثلاثة؛ وذلك قصد تجنّبنا الإطالة في موضوع التأثير والتأثّر. ومن رسالة كان ردّ بها على الشيخ أبي جعفر بن أميةّ نجده يلجأ إلى توظيف الحديث، وهذا في قوله:

"بلاغة تفتن كل لبيب، وترعى روض كلّ أديب، وتغُضُّ على رغم العدو من حبيب إن من البيان لسحرًا، ويا أيها الجواد وجدناك بحرًا"[54]. وفي نفس الرسالة أيضًا يلجأ إلى توظيف الحديث، وهذا في قوله: " وقد عاد الدين إلى غربته، وشرق الإسلام بكربته " [55]. وهنا إشارة إلى الحديث" بدأ الإسلام غريبًا، سيعود غريبًا ...".

<u>مكانة ابن عميرة في الكتابة العلمية الأدبية</u>: وما دام ابن عميرة قد قضى جلّ حياته في مهنة القضاء التي تولاها في بعض المدن الأندلسية والمغاربية فإننا لا نعدم تأثير المهنة فيه؛ ولذا وجدناه يوظّف تلك المصطلحات الموظّفة في علوم الدين بصفة عامة، وهذا في تهنئته عن لسان أهل شاطبة إلى ابن هود في وصول كتاب الخليفة العباسي، والتي من بين ما يقول فيها:

"أما بعد فكتب العبد – كتب الله تعالى للمقام العلي سعادة لا تبلغ أمدًا إلاّ تخطّته، ويدًا علوها أثبتته أيدي الأقدار، وخطته– من شاطبة وبركات الأمر المجاهدي المتوكليّ، والعهد الواثقي المعتصمي تنسكب كالمطر، وتنسحب على البشر، وتقضي بسعادة النصر والظفر، وعند العبيد من أداء فروض الخدَم، والقيام بحقوق النعم، ما عقدت عليه ضمائرهم، وحديث طاعتهم حسن صريح، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية، ويحملهم على المناهج السوية، ووصل كتابه الكريم متحليًا برواء الحق، ناطقًا بلسان الصدق، ولا يوم كذلك اليوم تبدّى نظره للعيان نثرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور فهو علوّ في الإسناد، ولا نظير له في العوالي، وإن هذه البشائر وما تبعها، كفروع عن هذا الأصل الصحيح، وأقيسة عن هذا النص الصريح، فأدلّة الخلافة قد استقلّت، وشبهة الخلاف قد استقلّت، وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلّت، وشرّف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء، وجدّدوا ما تجدّد للمقام العلي المتوكليّ، والمشاهدة له بإسعاد الأيام، ولو وجدوا رخصة في المسير لعزموا وهم يستلمون البساط الأشرفي توهّما ومن أملهم أنهم في الحقيقة قد استلموا "[56].

والغالبية من هذه المصطلحات والتعابير تدلّ دلالة قاطعة على ثقافته العلمية والأدبية التي تميّز بها دون سواه، ولولاها لما وظّف في مهنة القضاء والكتابة في الدواوين؛ ولهذا نجد الغُبْريني يصفه "بالمتقن المتفنّن، أعلم العلماء، وتاج الأدباء " [57]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقول بأن " الذي أوجب تقدّم الفقيه أبي المطرف في كتابته إنما هو أن الرجل من أهل بلنسية من أهل العلم فكتابته علمية أدبية، وكتابة غيره مقتصرة على نوع الأدباء، وهذا المعنى هو الذي تميّز به عمّن عداه، وسبق به من سواه"[58]. ثم يعلق الأستاذ رابح بونار محقق عنوان الدراية على الكتابة العلمية الأدبية ويقول" بأنها في نسخ (أ) علمية لدنية، أي أنها ذات طابع ديني يزيّن الأسلوب الأدبي". وكما يبدو (للأستاذ المذكور) أن ما هو في الأصل أقرب إلى مقتضى السياق[59]". وعليه فإننا نرجّح بأن هذه الرسالة هي ذات طابع علمي ديني أو ديني أدبي؛ لأن اللفظين معناهما واحد، ويقصد بهما التشريع الإسلامي أو الفقه أو القانون الإسلامي، الذي ما هو إلاّ فقه أو قانون حسب تعبيرنا الحالي، وأصابت بعض الجامعات لما أطلقت على كلية الحقوق بكلية الشريعة والحقوق.

خاتمة:

في هذا البحث تطرقنا إلى ترجمة ابن عميرة ومن ضمنها مكانته أو منزلته العلمية والأدبية خاصة، وإلى آثاره النثرية المتمثلة في بعض رسائله الأدبية والرسمية، والتي كان كتبها إلى أصدقائه ردّا عليهم، وكذلك البعض من رسائله الرسمية التي بعثها إلى الرسميين أو كتبها عنهم نيابة ، وأنّ أغلبها كان يتضمّن موضوع المحنة الأندلسية وما نتج عنها من لجوء إلى الضفة الجنوبية من غرب البحر المتوسط، والتي كانت نتيجة لاختلافاتهم وإخفاقاتهم أمام النصارى، الذين كانوا يستولون على المدن والقرى، أما موقف ابن عميرة من هذه المحنة فيظهر

في الدفاع عنها بوصف وضعيتها أو أوضاعها، وبالتالي طلباته من أولي الأمر ببلدان المغرب الأخذ بالثأر من هذا الخَصْم المشترك. ثم تطرق البحث إلى نوع صياغة ابن عميرة في كل من رسائله الأدبية والرسمية، وهي صياغة تميزت بتوظيفه للأسجاع القصيرة في الغالب إضافة إلى الأدوات البلاغية الأخرى كالتورية، وكذلك توظيف الأديب الشاعر والكاتب الكبير للروافد التراثية المعروفة من قرآن، وحديث، وشعر، وأمثال، وتاريخ إسلامي.

لكن في مقابل ذلك لم يتطرق البحث إلى هيكلة الرسالة مخافة التطويل، وإن كان هذا لا يمنعنا من ذكر شيء منها على سبيل المثال لا الحصر من البسملة، والتصلية، والتسليم، والدعاء إلى المرسل إليه، وذكر اسمه، وسلسلة من أسماء آبائه وأجداده، والدعاء له، ولهم ، ثم ذكر مكان الراسل، والدخول في الموضوع، والتحية في نهاية الرسالة أو السلام، وتاريخ الرسالة، وفي أعلى الرسالة يوضع رسم العلامة السلطانية. أما هيكلة الرسالة الأدبية فكثيرة التغيير، ولا يمكن أن يحصرها بحث علمي واحد.

ونظرا لبلاغة ابن عميرة العالية في كتابته الأدبية أو هذا الأثر الأدبي القيم يمكن استغلاله ولاسيما أن الرجل اشتهر بالكتابة العلمية الأدبية دون سواه.

وعليه فإننا وجدنا كتابته ذات قيمة قد يمكن استغلالها من طرف مُتعلّمينا أو طلبتنا بل ما أحوجنا وأحوجهم إلى هذه الكتابة العلمية الأدبية، ولا يخصّ هذا طلبة الآداب، واللغات، والعلوم الإنسانية بل حتى طلبة الصحافة والعلوم السياسية، والحقوق والعلوم الإدارية؛ لأن تلك الكتابة المذكورة تفيدهم في رصيدهم اللغوي والمعجمي أو الاصطلاحي بل في تراكيبهم أو تعابيرهم، التي هم في حاجة إلى تقويتها وبخاصة أن ابن عميرة وظّف النثر المرسل كذلك، وكتابته كما تكرر معنا هي كتابة علمية أدبية، وكنموذج عن ذلك يُنظر التهنئة التي كتبها إلى ابن هود عن لسان أهل شاطبة، وتاريخه المُسمّى " بكائنة ميورقة " ... بالإضافة إلى هذا وذاك أنّه قد مارس وظيفة القضاء طول حياته التي دفعته إلى توظيف المصطلحات الفقهية والنحوية وهي من طبيعة الحال مصطلحات علمية.

ونظرًا لهذا كلّه فإن ابن عميرة كان له كبير التأثير على كبار الكتّاب في عصره، وفي القرن الثامن كابن هانئ السبتي، وابن الخطيب، وعبد المهيمن الحضرمي الذي كان لا يجارى في البلاغة والشعر على حسب ما أخبرنا به ابن خلدون. إضافة إلى هذا أن ابن عميرة كانت له إبداعات بمثابة الظل الذي انعكست عليه المحنة الأندلسية وبخاصة أن الرجل كان ملتزما بقضية إلتزامًا، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ولولا ابداعاته الجيدة الممتازة، والمتمثلة في كتابته العلمية الأدبية لما كان جمعها ابن هانئ السبتيّ المذكور، ولما بقيت بعض مخطوطاتها، وهذا على الرغم من المحن التي أصابت الأمّة، وهي في جمعها وبقاء مخطوطاتها شبيه بمقامات الهمذاني أو كتّاب المقامات في الصياغة، وهي أي رسائل ابن عميرة قد وجدت كنموذج حتى لتعليم الناشئة وغيرهم الفن الإنشائي بصفة عامة.

هذا ولم يبق لنا إلا أن نثبت في بحث مستقل، وهل أن ابن عميرة كان ينتمي حقّا إلى مدرسة بديع الزمان الهمذاني كما ذهب إلى ذلك لسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة ؟ أم أنه كان بين المدرستين: مدرسة البديع، والحريري ؟

<u>هوامش البحث</u>:

1. ينظر: تاريخ ابن خلدون (المقدّمة)، ص 1038 – 1042.
2. عنوان الدراية، ص 250.
3. المصدر نفسه، ص 251.
4. المصدر السابق، والصفحة السابقة.
5. المُغرب في حُلى المغرب، ص 363.
6. الإحاطة، م 11، ص 174.
8.7. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
9. المرجع نفسه ، ص 253.
10. المرجع نفسه ، ص 104– 107.
11. المرجع نفسه ، ص 85 وما بعدها.
12. عنوان الدراية، ص 252 – 253.
13. عنوان الدراية، ص ص 250.
14. عنوان الدراية، ص 253.
15. نفح الطيب، م/1، ص 313.
16. الإحاطة م/1، ص 174.
17. نفح الطيب : م/1، ص 315.
18. المصدر السابق، م/1، ص 315.
19. الإحاطة، م/1، ص 178.
20. نفس المصدر، م/1، ص 174.
21. نفح الطيب، م/1، ص 304 – 305.
22. إشارة إلى الحديث الشريف " بدئ الإسلام غريبا وسيعود غريبا..."
23. هو حنش الصنعاني .
24. هو المنصور بن أبي عامر.
25. المقري: نفح الطيب، م/1، ص 307.
26. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
27. المصدر نفسه، ص 307 – 308.
28. المقري: نفح الطيب، م/1، ص 317 – 318 .
29. نفح الطيب، م/1، ص 318 – 319.

30. المصدر نفسه، ص 310.
31. المصدر نفسه، ص 312 – 313.
32. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
33. يقال أيضا: " داهية نآد ".
34. المصدر نفسه ، ص 312–313.
35. المصدر السابق ، ص 311 – 312.
36. ينظر ترجمة ابن عميرة في هذا البحث.
37. نفح الطيب، م/1، ص 321.
38. تاريخ ابن خلدون ، م/7 ، ق/14 ، ص 864.
39. الغُبريني، عنوان الدراية، ص 250.
40. الغُبريني، عنوان الدراية، ص 250 – 251.
41. الغُبريني، عنوان الدراية، ص 252.
42. محمد بن شريفة: أبو المطرف بن عميرة المخزومي حياته وآثاره، ص 198.
43. المقْري: نفح الطيب، م/1، ص 307.
44. م/1، ص 176 – 177.
45. الإحاطة، م/1، ص 174– 175.
46. المقْري، النفح، م/1، ص 307.
47. المصدر نفسه، م/1، ص 596.
48. المصدر نفسه، م/1، ص 309.
49. المصدر نفسه، ص 307.
50. المصدر نفسه، ص 309.
51. المصدر نفسه، ص 311.
52. ابن الخطيب، الإحاطة، م/1، ص 174.
53. الغبريني، عنوان الدراية، ص 251.
54. المقْري، م/1، ص 306 – 307.، ويقال: إن الرسول (ص) كان يعجب بالشعر ويقول حين يسمع بعض روائعه: إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة، العمدة لابن رشيق 9/1؛ نقلا من تاريخ الأدب في العصر الإسلامي لشوقي ضيف، ج/2.
55. المقري، م/1، ص 307.
56. المصدر السابق، م/1، ص 319 – 321.
57. عنوان الدراية ، ص 250 .
58. المصدر نفسه، ص 251– 253 .
59. المصدر نفسه، ص 252، هامش رقم 5.